الشعر العصري

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الاداب في كلية القديس يوسف

٢

فنون الشعر العصري (تابع)

﴿الغزل﴾ مَن ذكر الشعر الغنائي اثار في مخيّلة السامعين ولاسيما الشبّان منهم عواطف الحبّ والغرام والتبسّط في وصف الهوى وتباريحه شعرًا . هكذا ترى الكثيرين ممّن ملكوا ناصية النظم في عصرنا واعتقدوا انفسهم شبّاناً لا يشيخون لم يفهموا الشعر الّا بهذا المعنى . فراحوا يجمعون القوافي وينظمون المقاطع صباحَ مساء فيشبّبون من غير هوًى ويتغزّلون من غير عاطفة حتى اصبح اكثر الغزل من الشعر الجرنالي

﴿الشعر الجرنالي﴾ اريد به تلك المقاطع التي يتبرّع بها البعض من صحافيّينا على الادب العصري منّةً وكرماً فيحشون اعمدة صحفهم نظماً سقيماً فيوفرون للمزّج اسباب الدهش والتعجب ، ولاصحاب الذوق طرق الاشمئزاز والتأسف على شعر اصبح زمامه بايدي من لم يفقهوا للشعر معنى

- اريد به تلك الاوزان المتناسقة التي يكثر فيها ذكر الحبّ ، والغرام والغزال والذوبان والموت والقتل والشتى بعض الاحيان . ولا تستغربوا ذلك بل اسمعوا :

بَيضتُ عشقك حتى لو تمثّلَ لي شخصاً لكنتُ أريه الشتى بالمرصاد

وتصوّروا شاعرًا عصريًا يردُّ وصف محبوبته فلا يرى الّا قولهُ :

نُدير لحاظَها فأحسُّ حتى اكادَ لفرط احساسي اذوبُ

فيجيبهُ الآخر :

أأذوبُ لا والله لست اذوبُ . . . . . .

وعليه يمكننا وضع البيان التالي لاكثر القصائد الغزلية نُشرت في الجرائد او سوف تُنشر :

يبدأ الشاعر بوصف محبوبته وهي تكون عادةً صبوحة الوجه طلقة المحيا ذات شعر اشقر مسترسل، الّا اذا كانت على الزي الحديث، وعينين زرقاوين . . . ثم يصف ليالي الانس السالفة ويتحسّر على ذاك العهد السعيد حسرةً تبرّح به فيعتلّ ويرت في آخر القصيدة . ولكنه لا يلبث ان يقوم منتعشاً فيعدّ قصيدة ثانية في العدد التالي من الجريدة على نمط الاولى

هذا ما يدعوه بعض نظّامنا بالشعر العصري وما ادعوه انا بالشعر الجرنالي لانّنا نحطّ عصرنا اذا نسبنا اليه هذه التوافه

على ان، ولله الحمد، نرى جنب هذه المضحكات نوعاً من الشعر العاطفي الحقيقي، نوعاً من الغزل الصحيح يقرن فيه الشاعر الى بسط العواطف الرقيقة اللطيفة شرف المبنى ورنّة الموسيقى . وعندنا في ذلك مشاهير من امثال مخائيل نعيمه والياس فرحات والياس فياض ورلي الدين يكن . واليكم رائعة من اكلنا نظمهُ أدباؤنا في هذا الفنّ وهي لبشاره الخوري صاحب جريدة البرق . قال يذكر محاورة بين فتاتين احداهما مريضة تفكر بخطيبها فتعزيها الثانية وتقول :

– ماذا اقولُ له اذا رَجَعا يوماً ولم يُبصرك بالقصر ؟
– ماتت عليك أسىً ، أجيبيه !
– واذا رأيتُ الحزنَ منطبعا في وجهه الذاوي من القهر ؟
– كوني لهُ أختاً وعزّيه !
– واذا ترقرقَ لي طيفُكما ما قُلتِ ساعةَ حشرك المرّ ؟
– قولي له : « ابتسمتُ له فتسليه !
– واذا ارادَ بانْ نسيرَ معاً للقبر كي يبكي على القبر ؟
– رُحماكِ ! إنَّ الدمعَ يؤذيه !

وهنا ايضاً تبدو تلك الرنّة التي شعرنا بها في شعر خليل مردم بك والتي يرغب فيها الكثيرون من شباننا الشعراء، اذا ما تنزّلوا فيغلب عليهم التشكي من كل شيء . كانهم مصابون بما كان يسميه الافرنج في القرن الماضي «مرض العصر»

ونغمة الشجا هذه تتسع في غزل جبران خليل جبران فترتدي وشاحاً من التأسف والازدراء الممزوج بمرارة الاختبار المؤلم تبدو في الموسيقى المفجعة . على حد قوله في قصيدته «الامس» :

كان لي بالامس قلبٌ فنفى ... فاراحَ الناسَ منهُ واستراحْ
ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى ... بين تشييبٍ وشكوى ونواحْ
انما الحبُّ كنجمٍ في الفضا ... نورُه يُمحى بانوار الصباحْ
وسرورُ الحبِّ وهمٌ لايطولْ ... وجمالُ الحبِّ ظلٌّ لا يُتيمْ
وعهودُ الحبِّ أحلامٌ تزولْ ... عندما يستيقظ العقلُ النائمْ

وفي القصيدة عينها يقول :

هل يعي ايلولُ انتقامَ الربيعْ ... وعلى أُذنيه اوراقُ الخريفْ ؟

﴿الشعر الفلسفي﴾ وتتجاوز مرارة جبران هذه نوع النزل الى كل منظوماته ونظراته في المجتمع فتتحد بنوع خاصّ من التشاؤم اقتبسهُ من «نيتشه» فيكره المؤسسات الاجتماعية الحاضرة، ويردّ لو دكّها كلها مزدرياً بآراء جميع الناس وقوانينهم . يبسط ذلك في كتابه « المواكب » حيث نرى شيخاً متشائماً يذمّ كل ما في المجتمع : الدين ، العادات ، الاخلاق ، العدل ، السعادة . . . الخ . وامامه راعٍ فتى طلق الوجه ، يدعو الشيخ الى النزهة في البراري ، « الى الغاب » حيث يرى ائتلاف الحيوانات والنبات بالغاً اقصى درجات الكمال . واليكم بعض ابيات تظهر آراءه في الجنس البشري ومعتقداتهم :

واكثر الناس آلاتٌ تحرّكها ... اصابعُ الدهرِ يوماً ثم تنكسرُ
والارضُ خمّارةٌ والدهرُ صاحبها ... وليس يرضى بها غير الأُولى سكِروا
وما السعادةُ في الدنيا سوى شَبَحٍ ... يُرجى فان صار جسماً ملّه البشرُ

وهذا رأيه في العدل على الارض :

فالسجنُ والموت للجانين ان صغُروا ... والمجدُ والفخرُ والإثراء ان كَبِروا
وسارقُ الزهر مذمومٌ ومحتقرٌ ... وسارقُ الحقل يدعى الباسلُ الخطِرُ
وقاتلُ الجسم مقتولٌ بفعلتهِ ... وقاتلُ الروحِ لا تدري به البشر

ولهذا التشاؤم مصدر آخر غير مذهب «نيتشه» فانّ جبران المتهكم والمدمّر لا يأنف مذهب عُمَر الخيام، الذي يتزج فيه التشاؤم بالتعطّش الى الملاذ وطلب التمتّع في هذه الحياة قبل الفناء الكلي بالموت وهو القائل :

«وأضطرارًا قد جئتُ هذي الديارا وسأُضطرُّ للرحيل اضطرارا
واختياري ان استطعتُ اختيارا
ان أسلّي عن الفؤاد الهموما في حياةٍ ملأى أسىً ونُموما
فأديرُها سُلافةً واستثيرا نعمةً فالوُجودُ كان مصابا »(١

ولم تنتشر ترجمة رباعيات هذا الفيلسوف الفارسي حتى رأينا تأثيره في الكثير من الشعر. وكان أكمل مظهر لهذا التأثير في شعر الزهاوي فهو من هذا القبيل صورة للخيّام وقد اهتمّ مؤخرًا بنظم ترجمة جديدة للرباعيات. وهو يقول في الحث على الملاهي :

لا تَقِفْ في وجه لذّاتٍ تكُ مكتوفَ اليدين
انت لا تأتي الى دُنياك هذي مرّتين !

ويقول : مَتِّعْ حياتك قبل ان تودي بمُهجَتِكَ الحُتوفْ
فالروضُ لا يبقى بهِ زَهرٌ اذا جاء الخريفْ !

﴿درس الاخلاق﴾ ومن الشعراء المفكرين الذين لم يرتبوا افكارهم على طريقة المذاهب الفلسفية نذكر مخائيل نعيمه وايليا ابي ماضي وخليل مطران ورشيد سليم الخوري. وقد درس خليل مطران اخلاق الشعوب وتذلّلهم لساداتهم في قصيدتيه «مقتل بزرجمهر» و«نيرون» واستنتج أنْ

«كلُّ قومٍ خالقو نيرونهم فبصرٌ قيل لهُ ام قيل كسرى»

وقام رشيد سليم الخوري لسان حال شعراء البرازيل بالامر نفسه فقال يخاطب المهاجرين وقت ارسالهم الاعانات لمنكوبي لبنان وقد تجلّت في قوله روح الاباء المجروح :

«لا ترسلوا الخبزَ ليس الخبزُ ممتنعًا بل أرسلوا العزَّ انَّ العزَّ ممتنعُ»

---

١) وديع البستاني : رباعيات عمر الخيام معربة نظمًا – مصر ١٩١٢ – ص: ٦٤

وله انتقادات عديدة للاخلاق تتجلى في اكثرها العاطفة الصحيحة

ولايليا ابي ماضي نظرٌ صائب في انتقاد العادات وذوق صحيح في نبذ ما يُستكره منها. يُبرز كلَّ ذلك بطريقة غاية في التقانة والفنّ فاذا سمع التشكي من قبح الوجود قال:

أيها ذا الشاكي وما بك داء كن جميلًا ترى الوجودَ جميلا

واذا تأفف من التباكي في المآتم صاح:

لا تُثنّي عليَّ ثوبكِ حزنًا ولا تذرفي الدموع السخينه
فالبِ البأسَ واجلبي عند نعشي بسكونٍ اني أحبُّ السكينه
انّ للصمت في المآتم معنى تتعزّى به النفوسُ الحزينه

﴿تحليل النفس﴾ امّا ميخائيل نعيمه فانه تخصّص بشعره لتحليل النفس البشرية بابراز خفايا نفسه. وفي عرفه ان النفس اصحُّ واصدقُ مصدر للشعر فدرس حالاتها المتعدّدة في اشخاص مختلفة واظهر ان فيها من الكنوز الدفينة ما يكفي الشاعر زمناً طويلًا اذا احسن استخراجها. اوضح كل ذلك في قصيدته «لو تدرك الاشواكُ سرَّ الزهور»

فالقى نظرة على المصادر الخارجية لفرح الانسان وحزنه وباقي تأثراته واظهر ان في النفس مصادرَ اقوى من هذه واكثر دواماً. قال في احد المقاطع:

يا جالسًا بين الخدود التي سُكانها أضحوا ترابًا ودودْ
إني انَّ من تبكيهِ يا صاحبي لا شكَّ خِدنٌ او صديقٌ وَدُودْ
او إن تشا قُل خيرُ إنسانِ
لكن غدًا تنساهُ. امّا انا ففي حياتي كلَّ يومٍ دفينْ
اذ إنني أجتثُّ ما قد بُلي مني، وكم يبلى رجاءٌ ثمينْ
في لحظةٍ من عيشنا الفاني!

وكذا نقول عن التحليل الرقيق في قصيدته «من انتِ يا نفسي؟»

وقد برعن في قصيدته «فتش لقلبك عن رفيق» عن حاجة الانسان الشديدة الى قلبٍ يكون له رفيقاً وعوناً في معارك هذه الحياة فقال:

« أسفي عليك فلا الذهابُ سهلٌ عليك ولا الإيابُ
ستظلُّ تهبط في ضبابْ حتى يُنيرَ لك الطريقْ
قلبٌ يكونُ لقلبك الواهي رفيقْ ! »

واليكم الآن آخر مقطع من ابتهالاته والتي ألفتُ النظر الى ما فيها من قوة التحليل النفسي ووصف شدة تأثير الايمان والرجاء وافضليتها على التفكر والقياس العقلي

واجعَل اللهمَّ قلبي واحةً تَسْتي التريبْ
التريبْ
ماؤها الايمانُ . اما غرسُها فالرجا والحبُّ والصبرُ الطويلْ
جوُّها الاخلاص . اما شمسُها فالوفا والصدقُ والحِلمُ الجميلْ
فاذا ما راح فكري عبثًا في صحاري الشكّ يستجلي البقاء
سرَّ منهوكًا بقلبي فجشا تائهًا يمتصُّ من قلبي الرجاء
واذا ما أمَلي يومًا مشى تائهًا في مهمهِ العيش السحيقْ
عاد لمَّا كاد يقضي عطشًا يحتسي الايمانَ من قلبي الرقيقْ
واذا الايمان ولّى والرجا اضحى ضريرْ
فليَمُتْ قلبي الى ان ينفُخَ البوقُ الاخيرْ

﴿الحيرة﴾ اذا تجاوزنا هذا التناقض او المماراة بين الايمان العاطفي والقياس العقلي الى الشك والحيرة في مأتي الوجود وجب علينا ان نُفرد لها محلًا خاصًا لنسيب عريضة . وهو ، على قول نعيمه ، «شاعر الحيرة المخرساء ، فالناطقة ، فالمتوحدة ، فالمشككة ، فالمتعمدة ، فالمتصوّفة ، فالمهتدية ، فالهاربة»

وهذه النعوت تلخص كل صفات الشاعر وتقلباته فتراه اولًا حائرًا لا يدري اين يذهب والى من يلتجئ فيقول مستغربًا :

لماذا غبتُ ؟ لماذا تُحَسّ ؟ لماذا نعيشُ بلا طائلْ ؟

فتزيده حيرته ويزيده الما ذاك الاختلاف الدائم بين قلبه الارضي المتعلق باللذات ونفسه الشريفة التائقة الى ما وراء الوجود فيقول :

يا نفس مالكِ والأنينْ تتألمين وتولمينْ
عذَّبتِ قلبي بالحنينْ وكتمتِ ما تتصدَّينْ

وفي الله هذا يقف شاكاً في كل شيء يائساً من مساعدة البشر فيرجع حزيناً بعد ان اكثر النداء ويقول:

ما من مجيبْ! . . . ما من مجيبْ .
سِرْ يا شقيُّ كفاك تشكو ما دهاك
أَلَمٌ لا شاكٍ من البلوى سواكْ ؟
كم ذا تفتشُ عن مواسٍ او معينْ
هيهات ان الناس مثلك اجمعينْ !

وتدفعهُ خيبة آماله في البشر الى الاتكال على نفسه وتظهر بَرْقة امل في طريقه الموحش فيسير معللاً ذاته بالرجاء مخاطباً نفسه:

الا أمشي ويعد الجهاد الحقيقي
سنسبق امالنا في الطريق
ونجني الاشعَّة قبل الشروق
الا امشي !

ثم يصيح اذا ما اهتدى كانه يوبخ نفسهُ اثناء الحيرة:

لو حدَّق المرء في البرايا لشامَ ما لا ترى العيونْ
ما حولنا عالمٌ خفيٌّ تدركهُ الروحُ في الكونْ
كم مُبصرٍ لا يرى واعٍ يرى ويدري الذي يكونْ
يا ويح من لا يرون شيئاً الَّا اذا فتحوا الجفونْ

ولكن لا تطول هدايته حتى يعاوده الشك والحيرة فيعاودنا ببدائع الشعر وقد قال مؤخراً عن نفسه: «انه لا يزال على الطريق ونُصب عينيه المحجَّة وسيواصل سيره اليها غير ملتفت الى اثار قدميه في الرمل»

﴿الشعر الوطني﴾ وكان من مواضيع عصرنا الشعرية الحسية الوطنية والاناشيد

الحماسيَّة وهي نفحة هيَّجها ظلم عبدالحميد من جهة ونهضة «دير وليد» الوطنية في فرنسة من جهة اخرى فتردد اصداؤها في بلادنا فنظم شبلي ملَّاط قصيدته «لوطني فرنسة المنفي». وبدأ وليُّ الدين يرمي ابياته صواعق على صرح عبدالحميد وما «خليج البوسفور في احدى ليالي الشتاء» سوى آية من الشعر الحي الموجز. وقام الشيخ ابراهيم اليازجي يستنهض العرب والرصافي يؤنِّب اهل بغداد فيقول:

عجبتُ لقوم يغضبون لدولةٍ يسوسُهمُ في الموبقات عميدُها
واعجبُ من ذا أنَّهم يَرْهبونها واموالُها بينهم ومنهم جنودُها

وقد زاد في النار ضراماً مقتل يزر الشاعر الاسباني، وكأنَّ بعض اللبنانيين اتخذوه عن غير معرفة مثالًا للاخلاص ومكافحة الظلم فألَّف ثلاثة منهم بعناية داود مجاعص رواية مقتل الشاعر المذكور ومثَّلوها بعد ثلاثة ايام في بيروت وحينذاك كتب ولي الدين مقالتهُ التي مطلعها:

اغمدوا السيفَ يا ملوك البلادِ ما ترومون من رقاب العبادِ

وجنب هذا المجرى الثوروي من الشعر الوطني نرى مجرًى آخر اخفَّ لهجةً وارقَّ عاطفة واثبت في النفس وهو التغني بامجاد الوطن والحنين اليهِ مع التأسف لما ينتابه من المصايب والبلايا والتنقاد ما فيهِ من المساوئ باطفِ غايتهُ الاصلاح. واذا ذكرنا هذا النوع ذكرنا رشيد سليم الخوري وحنينهُ الى لبنان مشهور وهو القائل لوَلَدِهِ:

دع عنك نائبي فكم من نازحٍ منلي يطالعُ وجدهُ بسطوري

وخليل مطران ورشيد ايوب وشبلي ملَّاط وامين تقي الدين وحليم دموس ورديع عقل. ولعرَب الالياذة في ذكر لبنان وقت الحرب وقد اشتدَّت عليهِ الازمات اشتدادها على الشاعر في مرضه قال:

ولي وطنٌ تنتقلُ كاهلاه واهلوهُ يُعانون الامرَّا
لهُ ولهم عليَّ ديون حُبٍّ اروم وفاءها فاموت حرَّا
وبعد قضاء ذلك لا أبالي أطال العمرُ ام أُلحدتُ قبرا
وان تَنْزِلِ المنيةُ قبل هذا فانَّ بنيَّةِ الاخلاص عُذرا

وداود عون ولا يُسمع اسمه الّا قيل :

يا بني امي اذا حضَرَت ساعتي والطبيبُ اسلمني
فاحملوا في الارز نعشي وخذوا من ثلجهِ كفني

امّا حافظ وشوقي فقد اختصّا بوصف مآثر مصر واشتهر شوقي بوصف مآتي العالم الاسلامي عموماً واميرِ مصر خصوصاً مما أنالهُ لقب «شاعر الامير» فنقلـه بعض محبي التلاعب بالالفاظ من صحافيينا الى «امير الشعراء» على نحو القول «كلام الملوك ملوك الكلام» او «عادات السادات سادات العادات»

وهناك ايضاً انواع المدح والتهاني والهجـاء والمراثي ولا يزال يتعلّق بهـا بعض شعرائنا فيضيعون وقتهم وشاعريتهم غير نافعين ووقتَ قرائهم غير مستفيدين

صفات الشعر العصري

«للشعر العصري على سابق الشعر مزيّة زمانهِ على سالف الدهر» (خليل مطران) هذا قول شاعر عصري نظر ولا شك ما امتاز بهِ الشعر المذكور من سلاسة العبارة ورقة الالفاظ وكثرة المعاني . فـالشعراء العصريون يتحدّثون في هـذا الامر شعراء الافرنج الفنانيين فيتبسّطون في ايضاح عواطفهم بدقّة لم يألفها الجاهليون كما رأينا في امثال الشعر الشخصي

وعن هذا التبسُّط في شرح العواطف تولّد فنٌّ آخر جديد في الشعر العربي وهو التحليل النفسي الذي رفعهُ نعيمة الى درجة سامية وهو فنٌّ لم يعرفـهُ العرب ايضاً اذ انهم كانوا في اكثر تعبيرهم الشخصي يُبرزون العواطف بصورة اجمالية شأن الولـد الصغير اذا اراد إطلاع امّهِ على حاجياتهِ او احساساتهِ فانهُ لم يفصّلها تفصيلاً . . .

واذا فحصنا الوصف وهو المقياس المهمّ لدرجة الشعر نرى ان لهُ الدور الحسن في الشعر العصري ولاكثر شعرائنا فيهِ آيات كوصف حريق رومة لخليل مطران ووصف الطيارة لاحمد شوقي . وهو اذا تجرّد التضـادّ بلغ الابداع كقول معرّب الاليـاذة في وصف تقلّب الطقس في سويسرا :

بينا ترى النيرَ ركاماً زكاماً يحشد مبدّاً جيوش الظلام
والقلبُ خفّاقٌ لهَوْل القتـام

وقـاصفـاتُ الرعودْ والزمهريرْ
والغيثُ هامٍ بجودْ سيلاً غزيرْ
اذا بقرن الشمس زاهٍ يُنيرْ والحرُّ إثرَ القُرِّ يوري الشعيلْ

والذي نراه جديداً في معنى الشعر العصري ايضاً وصف الامور الطفيفة الظاهر التي لا يؤبه لها فيصفها الشاعر بدقة يرفعها الى الاعتبار ويترك للمطالع نظرة بعيدة الغور وافرة التأثير كما نرى في الوردة الذابلة تخليل مطران والنملة لمخائيل نعيمه

غير ان اكثر شعرائنا اذا وصفوا لا يتتبعون كل صفات الموصوف كما رأينا في شعر الجاهليين بل يذكرون كل ما يظهر لهم من الصور والتشابيه المتقطعة دون التوسع فيها كقول الرصافي في وصف الشمس وقد شبّهها بثلاث صور في اربعة ابيات :

انا الشمسُ المنيرهْ عينُ دنيانا البصيرهْ
وبها يبصرُ كلُّ من بني الارض مصيرهْ
تجتلي في الصبح منها وجهُ حسناء غريرهْ
وترى فيها شعاعاً مرسلاً مثل النذيرهْ

قابلوا هذا الوصف بوصف بشر بن ابي عوانة للاسد او بوصف امرئ القيس لفرسه تروا فرقاً . فالجاهليان يتتبعان هيئات موصوفيهما فيصورانهما . والعصري يرى صوراً عديدة للشمس فيجعلها الواحدة قرب الاخرى دون لحمة . ولعلّ هذا النقص ناتج عن اتساع دائرة الموصوفات اذ هي اوفر مما كانت عليه ايام الجاهلية

ومن عدم الترابط في الشعر العصري قول شوقي في وصف ملكة النحل وقد شبهها بتشابيه لا يدري الذوق ما يقول ازاءها :

تغلّدت إبرها وادّرعت بالمِبَرّهْ
كانها تركيةٌ قد رابطت بالثغرهْ
كانها جانَ درك في كتيبة مُعسكرهْ

ولا تستغربوا ذلك فان على جميع شعر شوقي مسحة سطحية من التاريخ فهو ان هنأ مصطفى كمال بانتصاره قال :

يا خالدَ الترك جددْ خالدَ العرب

وذكر بني ايوب وبني حمدان . وان وصف قصر يلدز وذاعه ذكر بلقيس وزبيدة هذا فضلاً عن الانبياء والاولياء من موسى الى عيسى الى محمد الى يشوع بن نون فيقول اذا اراد مخاطبة الشمس :

قفي يا اخت يوشع خبرينا ....

على ان هذا السهو لا يمنع كون شوقي من اشهر شعرائنا في الاستهلال الجميل . ومن اشدهم تأثيراً في السامعين بموسيقى الالفاظ والمهلة . وما قولكم في هذا المطلع :

يا اختَ اندلسٍ عليكِ سلامُ هوتِ العلافة عنكِ والإسلامُ

وفي هذه الابيات :

يا فاتح القُدسِ خلِّ السيفَ ناحيةً ليس الصليبُ حديداً كان لا خشبا
اذا نظرتَ الى اين انتهتْ يدُه وكيف جاوز في ساطانهِ القُطبا
علمتَ أنَّ وراء الضُعف مقدرةً وان للحقِّ لا للقوةِ الغَلَبا

وانا نرى موسيقى هذا العصر الطف واقوم وابعد مدى من موسيقى العصر الجاهلي ويكفي ان نقرأ شعر شوقي وجبران خليل جبران وامين مشرق فنتحقق ذلك

رأينا في شعر الجاهليين بالامثال التي ذكرناها من اقوال النابغة وبشر وطرفة وغيرهم رغبتهم في الاستدارة التشبيهية والجمل الاعتراضية المصورة وهي كما لا يخفى جميلة الوقع تجذب انتباه السامع حتى تنتهي فيتمثل الامر المطلوب بتمثاله شبيهه . وهو اسلوب لا نكاد نراه في الشعر العصري الا ما ندر ومن ذلك قول بشارة الخوري في عروة وعفراء :

ما عاملٌ في الحقل حمَّلَ يومَهُ ما ليس يحملُ مثلهُ الحرّانِ
يمشي بمنزلهِ بنفسٍ مُغالبٍ مرَّ الشقا بحلاوةِ الوجدانِ
يَنحو بفكرتهِ عبوسةَ دهرهِ يتبسّمُ في آلهِ وحنانِ
يَمشي وما هوَ ان دنا حتى رأى في كوخهِ المحبوب سُحْبَ دُخانِ
ورأى اشتعالَ النارِ في احشائهِ وبكا النسا وتعالتْ الشبّانِ
فأحسَّ بالخطبِ فاسرع ليته اردى ولم تُسرعْ به القدمانِ

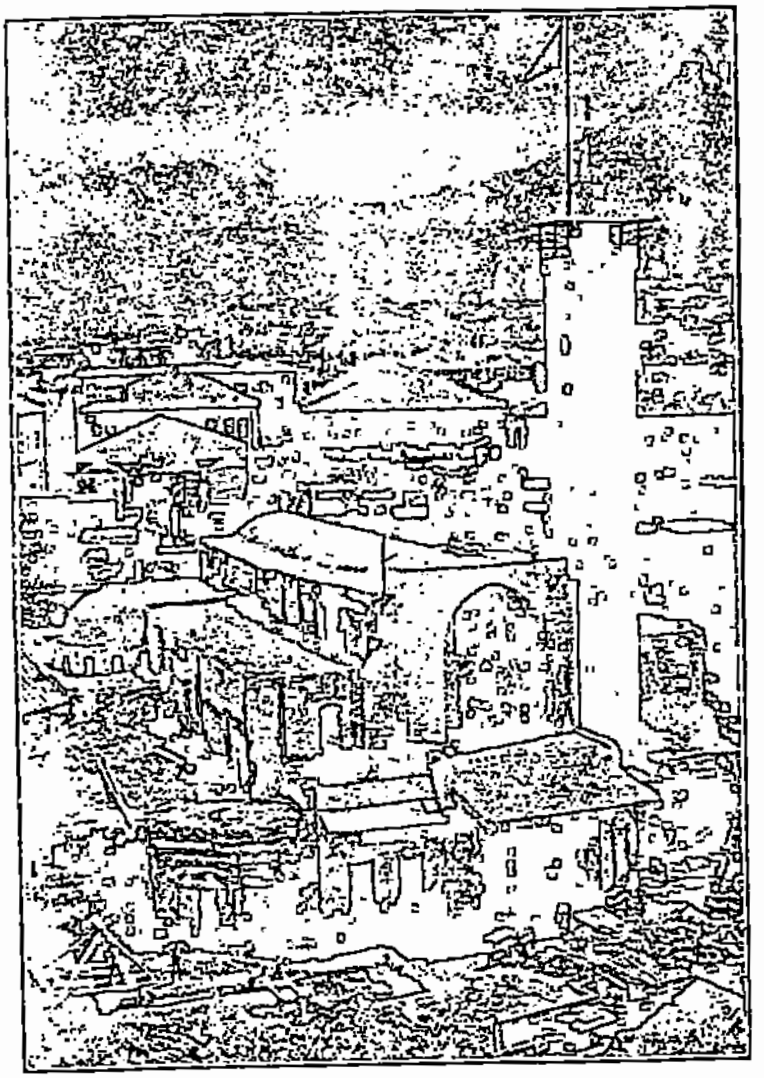

صورة جامع يحيى وكان سابقاً كنيسة على اسم القديس يوحنا شيّدها الملك بودوين سنة ١١١٠ ثمّ حوّلها المسلمون الى جامع (عن صورة شمسية للسيد الورج)

فرأى قريبتهُ المهيبة جثةً وبجنبها ولداهُ يعترفان
ما تخطبُ هذا وهو أهول ما رأتْ عينٌ وما سمعت به أذنانِ
باشدَّ من قولِ الرواةِ لمُروةٍ عفراءُ امست زوجةً لفلانِ

وفي شيرين الفارسية لشبلي شيء من هذا النوع الّا انهُ يعدّد المشبَّه بهِ فيخرج عن التبسُّط المطلوب في الاستدارة التشبيهية

وقد انتقد بعضهم على شعراء العصر انصرافهم عمّا يحيط بهم من المواضيع وخلوّ شعرهم من الدلالة على طرق معيشتهم فقالوا وفي قولهم حق : إنَّ من يجيء بعدنا بمائة او بمائتي سنة لايمكنهُ ان يعرف من شعرنا شيئاً يُذكر عن حياتنا الاجتماعية وطرق معاملاتنا كما نعرف نحن عن الجاهليين واسطة شعرهم

امّا من جهة المبنى فان للشعر العصري المزية الكبرى باختراع اوزان واساليب جديدة لم يعرفها الخليل ولا فقه لها مقلّدوه فتعددت طرق التعبير بالشعر واتسع نطاق القوالب النظمية لكثير من الافكار واخذ الشعراء بالتفنن بجمع التفاعيل وتجزئها ممّا لا يتسع الوقت للتبسُّط فيهِ

ولكن هذا التجدُّد ذهب باليعض مذهباً متطرّفاً فازدروا القواعد المعقولة وظنّوا ان لا وجود للشعر الّا بالمعاني فقاتهم جمال السبك ورنة الموسيقى فضلاً عمّا اقترفوهُ من الاغلاط اللفظية من لغوية ونحوية الشائنة محاسن اقوالهم . . .

الشاعر الجاهلي والشاعر العصري

واني لارى فرقاً عظيماً ايضاً بين الشاعر الجاهلي والشاعر العصري من حيث مُهمَّتهِ الاجتماعيَّة وواجبهِ في افادة بني قومه . ولم اذكر سابقاً من صفات الجاهلي شيئاً حرصاً على مقابلتها الآن فاقول :

الشاعر الجاهلي مذكي النار ومؤججها المعبّر عن العواطف ومحلّلها فاتحُ النفس البشرية والباحثُ فيها مصوّرُ الطبيعة الحقيقية وشارحُها الابتداء والثالثة في تاريخ شعرنا الطويل العريض

شبَّ البدوي حرًّا من كل قيد خالياً من كل تقليد صِفْراً من كل همّ جاهلاً كل تهذيب عقلي . فكان لا يُطيع الّا اذا أُجبر ولا يحكم الّا بما يفهم ولا يصوّر الّا

ما يرى. وكان شعره مثال حياته فاتى صادقاً في العواطف تاماً في الاوصاف وفي الوقت نفسه قاصراً عن دقائق الشعور وتحليل الافكار

اما الشاعر العصري واريد من يحق له هذا الاسم فقد تشرب روح آداب اليوم المختلفة وفقه فن العصر في التحليل والتدقيق فارتفع من الاوصاف والرسوم الخارجية الى شعائر النفس المتعددة نشرحها ودرس حالاتها الثانية ازاء تقلبات مظاهر المجتمع. فاكتشف الادب مواضيع جديدة لم يتعمق فيها القدماء. وحالات نفسية نشرها بتحليل ووضوح لمن كان يشعر بها باجمال وغموض. فادرك اعلى قمة في الشعر الحي الازلي المستمد إلهامه من ينبوع النفس البشرية وهو لن ينضب على مرور الازمان

كان الشاعر الجاهلي دليل قومه وخطيبهم والمدافع عنهم لدى هجمات العدو اللسانية ينفث سحره على قول بعض المستشرقين حتى في خيام كبار الاعداء فيرديهم ويغمرهم ببيانه نقائص الاصدقاء فيرفعهم. وقد يجعل من المصايب محاسن كما فعل الحطيئة ببني انف الناقة. ولم يفت ساسة العرب الانتفاع من هذا المورد العجيب فكانوا يدفعون به بين القبائل لتهيئة افكار الجمهور لانقلاب غير منتظر او لاعداد عقد صلح او تشهير حرب او نشر مكرمة فكان كثير النفوذ شديد التأثير حتى حدّده حضرة الاب لامنس بقوله: «هو صحافي تلك الايام»

ولكن صحافي تلك الايام لم يكن ليتزلف فيخدم رأياً لا يراه او مبدأ لا يُسلّم به ولم يكن لينال الّا بالعاطفة والرغبة. هذا زهير مدح هرم بن سنان لمحبته له! وهذا عمرو بن كلثوم لم يتراجع عن تهديد الملك عمرو بن هند في وجهه! وهذا الاعشى كان القوم يحتالون عليه حتى يسكروه فيمدحهم اذ كانوا يعرفون انه لا يقول الشعر الّا راغباً! وهذا عبيد بن الابرص لم يقدر على مدح المنذر عند ما كان ذاك المدح آخر ما يؤمل من اسباب الحياة...

كان الشاعر الجاهلي ينظم الشعر لحاجة في نفسه او لدافع فطري او لمنظر طبيعي يهيج فيه قوة التصوير فينشد ويتغنى بشعره فيحفظه بعض الاعراب عرضاً او عمداً فيسير من حيّ الى حيّ ومن ماء الى ماء. فيشيع بين القبائل ويردّدونه في السّمر

اما الشاعر العصري فهو في ثلاثة:

واحد ورث التزلّف من الانحطاطيين ونشأ لا يحفظ الّا قصائد المدح والرثاء فرأى

الشعر وسيلة يصل بها الى نغمة او يتخلص من نقمة فاقام يوطئ الاوزان ويركب القوافي في مدح او هجاء فأفسد غاية الشعر وضيّع روحه السامية فهو لا يستحق الاهتمام

وثانٍ رأى في الشعر كما كان يرى فيه الجاهليون مجلىً للعواطف ومفرجاً من الهموم فسكب فيه بنات صدره ورسوم مخيلته فاكتفى به غايةً وهي مجيدة لولا ما تقدّمها من حاجات العصر المتعددة المتطلبة الجديد

وثالث حفظ القديم الحسن واضاف اليه الجديد الاحسن فرأى في الشعر فضلاً عن مستودع العواطف وسيلةً شريفة لافادة بني جنسه اذ يصوّرُ عواطفهم وميولهم مع عواطفه وميوله فيرتفع واياهم من دائرة الانانيّة الضيقة الى محيط التضحية الفسيح فيهذّب اخلاقهم بتهذيب عواطفهم ويفيد عقولهم عن طريق قلوبهم فهو الشاعر المجيد

وعليه فاذا كان الشاعر الجاهلي المجيد شاعرًا شخصيًّا لذاته فالشاعر العصري المجيد شاعر مفيد لذاته ولبني قومه. ولم يكن الجاهلي يعرف من نفسه هذه المقدرة الغريبة بل جلُّ ما كان يعرف انه قادر على رفع زيد وخفض عمرو فكانت بضاعته تتعلّق بالخارجيات. اما الشاعر العصري فبضاعته اشرف واسمى فهي ترمي الى العواطف الداخلية وتتعلق بالروحيات

وما اعظم الفرق بين الاعشى يمدح المحلّق فيرفعهُ وينشر ذكره بين القبائل فيزوّج المحلّق اخواتهِ ويكثر ماله و(بين) نعيمه ينصح الانسان ان يفتش لقلبه عن رفيق فيجد هذا الانسان رفيقاً ومساعدًا في عراكه الشديد فيستريح فؤاده ويتشجع في تعاريج هذه الحياة المظلمة . . .

فأي الاثنين اشد حفظاً لجميل شاعره ؟

المحلّق وقد اغتنى بالمال وبقيت نفسه مفلسة ؟ ام هذا الانسان الذي اغتنى بقلب حسّاس فتفتحت نفسهُ عن كنوزها الثمينة ؟

***

هذا ما رأيت ذكره في المقابلة بين العهدين وما فيهما من اختلاف المزايا. واذا كان لا بدَّ من الاختصار فاقول:

تركيب الجاهلي امتن من تركيب العصري ولغتهُ افصح ووصفه اتمّ وبساطته

اصدق وتصويره اوفر امانةً . اما العصري فمعانيه اتمُّ وتشابيهه الطف واوصافه اوفر وعواطفه ارقّ والفاظه اخفّ على الاذن ومهمّتهُ اشرف . ومهما يكن من القول فالشعر العصري لا يزال اليوم في طور الانتقال واننا انراه متجهاً في انتقاله نحو محجة الذوق السليم والادب الصحيح فنؤمل خيراً ونقول مع الشاعر :

واذا رأيت من الهلال نموّه ايقنتَ ان سيصيرُ بدرًا كاملًا

اوّل تاريخ لبيروت ولبنان

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

هو تاريخ بيروت واخبار الامراء بني الغرب اصالح بن يحيى الذي أسعدنا الحظّ على وجود نسخته الفريدة في مكتبة باريس العمومية فنشرناهُ اولًا في مجلة المشرق في سنتيها الأولَيَيْن ثمَّ طبعناهُ على حدة واضفنا اليهِ معلومات وفهارس مختلفة . فقدّرهُ العلماء قدرهُ واقبلوا على مطالعتهِ

ولمَّا نفدت طبعتهُ الاولى قبل الحرب الكونية لم تسمح لنا الظروف باعادة طبعهِ الّا في العام الحاضر فأجلنا فيهِ النظر وضبطناهُ على أصلهِ المخطوط واصلحنا ما وقع فيهِ من الاغلاط الطبعية لكنّنا تركناهُ على نصهِ الاصلي زيادةً في امانة النقل مع الاشارة الى اغلاط مؤلفهِ ليتضح المعنى ويزول الالتباس . وقد شفعنا هذه الطبعة الجديدة بعدّة معلومات منها للمؤلف كتعريف ملوك وولاة زمانهِ وكحملة السلطان برسباي على قبرس واسر ملكها يانوس فجاءت هذه الطبعة اوفى وادقّ من الطبعة الاولى

وها نحن نصف هنا ما يستفاد من هذا الكتاب النفيس لتعريف بيروت والقسم الجنوبيّ من لبنان في القرون الوسطى لاسيما في عهد دولة المماليك المصريّة التي في عهدها اشتهر امراء بني الغرب . ولكاتبهِ صالح بن يحيى ميزةٌ خاصة تزيدنا بشخصهِ ثقةً وباوفاداتهِ اعتبارًا . وذلك انهُ عاش في زمن قريب من الحوادث والامكنة التي